الاذاعة : نصوصها وموادها الثقافية بين قوميّة الثقافة ومحليتها

بقلم فاروق شوشة

ملاحظتان :

تقول النظرة التقليدية بأن للاذاعة من خلال برامجها وموادها المختلفة اهدافا ثلاثة هي : الاعلام والتثقيف والترفيه . وعلى اساس من هذه النظرة يقوم التقسيم التقليدي للمواد والبرامج الاذاعية :

أ ـ مواد سياسية ، نشرات اخبار ، تعليقات ، وبرامج تحقق الهدف الاول « الاعلام » .

ب ـ مواد ثقافية ، تحقق الهدف الثاني « التثقيف » .

جـ ـ مواد درامية ومنوعة ، تحقق الهدف الثالث « الترفيه » .

غير ان النظرة المتعمقة تتجاوز هذا التقسيم التقليدي ، وترى ان في كل ما تقدمه الاذاعة ملمحا ثقافيا وقيمة ثقافية ، يستوي في ذلك ما قصد به التثقيف البحت ، او ما قصد به الاعلام والترفيه ، فليست هناك اولا فواصل قاطعة او حدود مانعة بين هذه الاهداف الثلاثة ، فضلا عن ان المسألة يحكمها تماما مستوى التناول الاذاعي لموضوع من الموضوعات ونوعية هذا التناول ، وهو ما يعطي في النهاية الطابع العام للبرنامج او المادة الاذاعية بحيث يمكن القول : ان هدف هذا البرنامج هدف ثقافي او ترفيهي او اخباري .. وهكذا ..

هذا الفهم ، من شأنه ان يعطي للنصوص والمواد الثقافية والاذاعية معنى أرحب وأفقا اشمل ، ودورا اخطر بكثير من حدود ذلك المجال الضيق الذي تحبسها فيه تلك النظرة التقليدية ، هذه واحدة ..

واخرى ، ما تثيره تلك الجزئية من عنوان البحث « بين قومية الثقافة ومحليتها » . وليس وجه الصعوبة هنا ما نعرفه من تداخل ما هو قومي مع ما هو محلي ، وما هو عربي مع ما هو اقليمي ـ على صعيد الثقافة العربية ـ بحيث تصبح التفرقة بينهما في كثير من الاحيان عسيرة او مصطنعة ، لكن الصعوبة تكمن في ان الوجدان الثقافي العام للمستمع ـ الذي تتجه اليه النصوص والمواد الثقافية الاذاعية ـ وجدان يلتحم فيه القومي بالمحلي .. ومن خلال هذا الالتحام الذي أكده الموروث الثقافي المستمر ، والدين ، واللغة الام في صراعها المستمر مع اللهجات المحلية (وهو موضوع يتخذ بعدا خاصا من خلال اجهزة وسائل الاتصال بالجماهير وفي مقدمتها الاذاعة) يصبح التحديد القاطع للمفاهيم والاتجاهات والسمات أمرا قد يتضمن بعض الشطط والمجازفة ، كما قد تصبح التفرقة بين ما هو مصري وما هو عربي ـ على سبيل المثال ـ تفرقة تتطلب بحثا حضاريا متكامل العدة والوسيلة ، وهو امر لم تتح دراسته حتى الان .

ارجو ـ بعد هذه المقدمة ـ ان يتجه الحديث الى تصور محدد يتناول الموضوع :

شكلا ومضمونا وتطبيقا .

من حيث الشكل :

لا بد من وقفة مستأنية عند قضية اللغة ، باعتبارها وعاء الثقافة وحاملة التراث والحضارة من ناحية ، واللسان الذي تنطق به المواد والنصوص الثقافية الاذاعية من ناحية اخرى ، فضلا عن انها القضية المحورية دائما بين دعاة القومية والمنتصرين للمحلية .

لقد مرت نظرتنا الى قضية اللغة ـ خاصة في الآونة الاخيرة ـ بمزالق قومية وعاطفية خطيرة ، كان ابرزها الدعوة العنيفة الى التمسك بالفصحى وحدها لغة للتعبير والحياة باعتبارها لغة القرآن ولغة التراث واللسان الذي يربط بين ابناء الوطن العربي الواحد والذي بدونه لا يكون تفاهم ولا تواصل ، وارتبطت هذه الدعوة بالهجوم العنيف على العاميات او اللهجات المحلية والقطرية باعتبارها غير جديرة بالتعبير والحياة والاستمرار وعلى اساس ان التعصب لهذه العاميات يخفي مروقا على القومية العربية وترديدا لدعوات الانفصال والعزلة ..

ولم تكن هذه الدعوة العنيفة ـ في جوهرها ـ سوى رد فعل حاد لما نادى به انصار العاميات واللهجات الاقليمية ، الذين حاولوا جهدهم كسر رقبة الفصحى ، وترديد الحملات الضارية عليها ، وغمزها بالعجز عن مواكبة التطور ومسايرة ركب الحضارة والقيام بأعباء المعاصرة ، فضلا عن جمود التراكيب وجفاف التعابير والبعد عن مألوف الحياة والناس ..

وهدأت العاصفة ، بعد ان فرض الواقع نفسه ، وكان منطق الواقع العربي دائما ـ على صعيد الثقافة والادب والفن ـ يقدم النموذج الرفيع للمواءمة والتعايش بين اللغة الام من ناحية والعاميات او اللهجات المحلية والقطرية من ناحية اخرى ، منذ أقدم العصور وحتى اليوم ، ولم تكن العلاقة بينهما علاقة سكون او جمود ، وانما علاقة تفاعل واثراء وافادة ، كانت نتيجتها ما يسميه اليوم بعض علماء اللغة المعاصرين ـ في وطننا العربي ـ اللغة المشتركة او اللغة الثالثة اي ما نسميه نحن الاذاعيين العرب : لغة الاتصال بالجماهير .

ونزيد المسألة وضوحا ، فان المتأمل فيما نستعمله الآن من ألوان التعبير اللغوي ومستوياته في مجالات حياتنا الثقافية المعاصرة يستطيع ان يضع يده على ثلاثة انماط من التعبير ترتبط جميعها

بلغتنا الفصحى ، وهذه الانماط الثلاثة خاضعة بدورها لطبيعة الاجناس الثقافية التي تمارسها وتعبر بها وتتخذها وسيلة للاتصال .

هناك أولا ما يمكن تسميته بفصحى التراث ، ومثلها الاعلى عند الناطقين بها قائم في الماضي ، فهي اذن لغة سلفية ، يتحمس لها من وقفت ثقافتهم الاساسية عند التراث دون ان يتجاوزوه ، والذين يضيقون ذرعا بكل ما يمكن ان يتسع له اهاب اللغة من معاني المعاصرة والانفتاح على مجالات أرحب نتيجة للاحتكاك والتفاعل اللغوي ، بل ان هؤلاء عادة يقفون في وجه التطور اللغوي سواء كان هذا التطور في نحو اللغة او بنيتها او تراكيبها واساليبها او بلاغتها ..

مثال آخر نجده لدى المشتغلين بالعلوم والبحوث التجريبية والمتصلين بالحضارة الحديثة ومنجزاتها ، ان هؤلاء يستعملون لغة عصرية تحاول ان تستوعب هذه المنجزات ، وتتسع لفروع العلم الحديث وتطبيقاته ، وتتلقى الحضارات الوافدة وتتفاعل معها .. وهي لغة تختلف عن لغة التراث ، لانها لا تعتمد على المتوارث المألوف قدر اعتمادها على الاشتقاق والنحت اللغوي والترجمة والتعريب والتوسع في القواعد والاصول اللغوية التقليدية حرصا على ان يتسع رداء اللغة لمستحدثات العصر وعلى ان تنهض اللغة العربية بأعباء النهضة العصرية التي تبرز مشاكلها اللغوية الحادة في مجالي الفاظ الحضارة ومصطلحات العلوم : (مشكلة الفاظ الحضارة بين التعريب والترجمة ومشكلة صوغ المصطلح العلمي العربي وتوحيده) .

هناك ثالثا اللغة الادبية التي يستعملها الادباء في شتى فروع الانتاج الادبي (الشعر والقصة والرواية والمسرحية والريبورتاج الادبي) واساس هذه اللغة الانفعال والعاطفة والشعور ، وهي تنهض اساسا بالتعبير عن التجارب الشعورية والوجدانية .. فهي اذن لغة ظلال تهتم بألوان الشعور ومستويات التعبير الانفعالي اكثر من كونها لغة تحديد وحتمية وحسم .. بل ان هذه اللغة الادبية كثيرا ما تكون غاية في ذاتها (في الشعر مثلا) لا مجرد وسيلة من وسائل التعبير .

هذه الانماط او النماذج الثلاثة من التعبير اللغوي ، موجودة في مجتمعنا العربي المعاصر تتفاعل وتتشابك وتتصارع مع المحليات واللهجات القطرية والاقليمية ، ومن خلال صراعها وتفاعلها ولدت لغة رابعة هي لغة الاتصال بالجماهير ، التي تبنتها الصحافة لغة لها اول الامر ـ بعيدة عن تقعر فصحى التراث وغرابتها من ناحية وعن الوقوع في أسر العاميات واللهجات المحلية من ناحية اخرى ـ ثم آزرتها وسائل الاتصال السمعي والمرئي بالجماهير ، الاكثر حداثة ، وهي الاذاعة والسينما والتليفزيون .. وهكذا وجد لدينا هذا النموذج الرابع من نماذج التعبير اللغوي ، يرفض بطبيعته الجديدة المتغيرة والواسعة الانتشار ، ان يكون حبيس لغة التراث ، وليس من الممكن بطبيعة فاعليته ومدى انتشاره ان يكون لغة متخصصة للعلم والحضارة ، ثم هو يختلف كثيرا عن لغة الادب والفن .. لكنه ليس مقطوع الصلة تماما بهذه النماذج الثلاثة من التعبير اللغوي ، فهو يأخذ من كل منها ويصنع من هذه الحصيلة المشتركة شيئا جديدا يحمل ملامح التمايز والاختلاف ، ويقرب بدوره من وجدان الجماهير وتعاملهم اليومي مع الحياة .

وهكذا استطاعت لغة الاتصال بالجماهير من خلال الصحافة والاذاعة بالذات ، ان تكسب للعربية قاموسا جديدا من المفردات والدلالات والتراكيب الجديدة .

والخلاصة ـ بعد هذا الاستطراد الذي لم يكن منه بد ـ ان لغة الاتصال بالجماهير قد حسمت المناظرة التقليدية بين الفصحى والعامية او القومية والمحلية في اللغة ، وكشفت عن ملاءمة لغتنا العربية لاحتياجات العصر الحديث ومتطلباته ، وحققت نفاذها الاوسع والاكثر انتشارا الى جماهير المستمعين عبر اقطار الوطن العربي ، مجتازة حدود المتعلمين والاميين معا ، واصبحت بذلك اللسان الذي يحقق المعادلة الصعبة بين القومية والمحلية في اللغة عبر اذاعاتنا العربية المختلفة .

وعلى صعيد التطبيق ، فقد اصبحت هذه اللغة تتسم بالتخلص من العبارات والكليشيهات المحفوظة والمتوارثة ، والوان الزينة اللفظية والتأنقات البلاغية التقليدية ، متجهة الى تحقيق بلاغة عصرية من نوع جديد تتمثل في المباشرة والتحديد والمرونة والعمق والقدرة على الحركة ومراعاة مستويات المستمعين واحتياجاتهم ، واصبحت هذه اللغة تمثل « الوسط المشروع » الذي لا بد ان يراعيه كل اذاعي يتوجه بالمادة الاذاعية (خبرا كان او تعليقا او برنامجا ثقافيا او تمثيليا او منوعا) الى جمهور المستمعين ، لا يصعد عنه ولا يهبط دونه ، ولم يعد السؤال المطروح : الفصحى ام العامية ، لكنه اصبح : لغة اتصال ناجحة ام لا ، لغة تحتفظ بالمقومات الرئيسية للفصحى ، وتتسع ـ مع ذلك ـ للسمات والالوان والظلال الخاصة بالعاميات واللهجات المحلية ، وتخلق من كليهما وسطا لغويا متناغما ، اساسه الوحدة والتنوع معا ..

ومن حيث المضمون :

لعل الملاحظة الاولى الجديرة بالتسجيل ـ ونحن نتأمل نصوص الاذاعة وموادها الثقافية ـ هي انه لا خلاف على التراث الثقافي العربي كركيزة اساسية ومنطلق رئيسي في تشكيل الوجدان الثقافي العام للمستمع ، بل ولا صعوبة في العثور على هذا التراث والاهتداء اليه في مظانه ومصادره المختلفة ، وبالتالي فان تناول هذا التراث داخل مواد الاذاعة ونصوصها الثقافية امر ميسور ، غير مختلف عليه (كما هو الحال في البرامج الثقافية والادبية والخاصة التي تعرض لشخصيات وأعلام التراث العربي : شعراء وأدباء ومفكرين ومصلحين وبرامج المختارات الشعرية والكتابات الادبية والمواقف الحضارية واللمحات التاريخية الدالة .. الخ) لكن المشكلة الحقيقية هي في تناولنا للانتاج الثقافي العربي المعاصر ـ على مستوى الوطن العربي ـ ومدى الافادة منه .

وهنا ، لا بد من الاشارة الى طغيان العنصر الاعلامي المباشر الوثيق الصلة بالحياة السياسية اليومية على غيره من مكونات الحياة العربية المعاصرة ، وتحكم هذا العنصر في مدى الانفتاح او الانغلاق على الحياة الثقافية في قطر عربي دون آخر ، والى تعذر وسائل المتابعة والاتصال بالنسبة للانتاج الثقافي في كثير من اقطار الوطن العربي ـ نتيجة لصعوبات النشر والتوزيع والقيود المفروضة على الكتاب والمجلة والصحيفة ـ مما ادى الى استئثار بعض العواصم العربية بالمواجهة الثقافية لكل الوطن العربي (على سبيل المثال : القاهرة وبيروت) بينما بقيت في الظل عواصم عربية اخرى لم يتم التعرف على وجوه حياتها الثقافية المعاصرة بصورة كاملة ، في أحسن الفروض ، او لم يتم التعرف عليها اصلا في الاغلب الاعم !

بالاضافة الى هذه الملاحظة ، ملاحظة اخرى لا تقل عنها اهمية ، وهي خاصة بانفتاح العواصم الثقافية العربية على الثقافات العالمية المعاصرة ، وخضوع هذا الانفتاح في كثير من الاحيان لظروف التأثير السياسي والاعلامي ـ سلبا وايجابا ـ دون ان تتحقق له متطلباته الصحية المتمثلة في فتح جميع النوافذ ، والاتساع لكافة الثقافات ، مما ادى الى ردود فعل متضاربة ازاء بعض المفاهيم والتيارات الاساسية في الثقافات المعاصرة رفضا وقبولا ـ والى اختلاف في المواقف من حيث النظرة العربية القومية الى هذه المفاهيم والتيارات (على سبيل المثال لا الحصر : الفكر الماركسي والاشتراكي والوجودي ، تيارات العبث واللامعقول ، فكر العنف والغضب ، الفكر الثوري بوجه عام ..) .

ومن هنا ، فان النظرة الى نصوص الاذاعة وموادها الثقافية لم يعد ينبغي حصرها في اطار قومية الثقافة ومحليتها فقط ، وانما ايضا في اطار قومية الثقافة ومحليتها وعالميتها .

ملاحظة ثالثة ، يكشف عنها تأمل نصوص الاذاعة وموادها الثقافية ـ في اطارها العام ـ هي انه ليس هناك تصادم بالضرورة بين ما هو قومي وما هو اقليمي ، بين ما هو عربي وما هو محلي ، لكن المشكلة هي دائما في المنهج الذي يتناول هذا وذاك ، والرؤية التي بها نستطيع ان نضع كلا منهما في مكانه الصحيح من الخارطة الثقافية للانسان العربي المعاصر بحيث يتم التركيز على الاصيل والجوهري ويصبح كل ما هو اقليمي ومحلي وعابر زيادة في الغنى والثراء والتنوع في الاشكال والالوان والظلال والسمات ، بهذا وحده يتحقق التكامل والتنوع (على سبيل المثال : التناول الاذاعي لموضوع ادبي كأحمد شوقي شاعر العصر الحديث ، من الممكن ان يصبح تناولا اقليميا محليا ، ومن الممكن ان يصبح تناولا قوميا عربيا ، فالعبرة هنا بمنهج الرؤية واسلوب التناول) .

على صعيد التطبيق :

لم يكن في خطة هذه الدراسة ان تقدم بحثا احصائيا ميدانيا من واقع النصوص والمواد الثقافية الاذاعية ، بل كان اهتمامها الاول والرئيسي ان تشير الى ابرز الظواهر والاتجاهات الموجودة فعلا ، ذلك ان تأمل هذا الواقع يكشف عن بعض الاتجاهات العامة ويمهد لبعض التوصيات التي يمكن ان تكون مجال مناقشة :

أ) يمثل البرنامج الثاني لاذاعة القاهرة ذروة الاهتمام الثقافي المتخصص لدى الاذاعة والموجه اساسا لمستمعي الثقافة الرفيعة ، والطابع العام لما يقدمه البرنامج الثاني يتمثل اولا في انه يعكس اول ما يعكس الثقافة العالمية المعاصرة (الدراما العالمية ـ البرامج الخاصة التي تتناول موضوعات وتيارات واعلاما من المعاصرين ـ المترجمات الحديثة في القصة والشعر والادب بوجه عام) ..

تأتي بعد ذلك من حيث النسبة العددية لساعات الارسال ، ما يخصصه البرنامج الثاني من حيز للثقافة المحلية ، شعرا ونثرا ، قصة وحديثا ، بالاضافة الى بعض البرامج العلمية والادبية والخاصة ..

وفي المرتبة الثالثة ، يجيء ما يخصصه البرنامج الثاني للثقافة العربية ممثلة في برامج خاصة تتناول موضوعات من التراث (شخصيات ادبية وفكرية وعلمية) ..

وهكذا تتضاءل المساحة المخصصة للثقافة القومية وتنكمش ، لتأتي قبلها في الاهمية والمساحة الزمنية المعطاة : الثقافة العالمية ثم الثقافة المحلية .

ب) اذا نظرنا الى اذاعة اخرى هي « اذاعة صوت العرب » وهي كما يفهم من اسمها اذاعة قومية بالدرجة الاولى ، سنجد ان هذا الطابع القومي يصدق اكثر ما يصدق على موادها ونصوصها السياسية اكثر من انطباقه على نصوصها وموادها الثقافية التي تظل في كثير منها خاضعة لامكانيات ومتطلبات الثقافة المحلية ، خاصة ما يتصل منها بالآداب والفنون ، فضلا عن الصعوبات التي سبق الحديث عنها والتي تتصل بالعزلة الثقافية بين كثير من اقطار الوطن العربي الواحد ، وانعدام القدرة والوسيلة على التواصل والتعرف على ملامح الحياة الثقافية المعاصرة فيها (على سبيل المثال : أين هي الصورة المكتملة لدينا عن واقع الحياة الثقافية في السعودية او في اليمن او في السودان ؟ وما هو الدور الذي تقوم به النصوص والمواد الثقافية الاذاعية بالنسبة لحركة التعريب في المغرب او في الجزائر وهي حركة عربية قومية في المحل الاول ؟ والى اي حد تعكس برامجنا الثقافية الاذاعية النشاط العلمي العربي الموحد لعدد من المجامع العلمية المتماثلة في دمشق وبغداد والقاهرة ؟ والى اي حد تستطيع ان تؤدي هذه النصوص والمواد الثقافية دورا بالنسبة لتوحيد المصطلح العلمي العربي ، والصياغة العربية لالفاظ الحضارة الحديثة وبالنسبة لمشاكل الترجمة الحديثة ـ على مستوى الوطن العربي كله ؟ الخ ...) .

ج) بعد ذلك ، فان الامر يتطلب تخطيطا شاملا ـ على مستوى الاذاعات العربية ـ تتحدد من خلاله النسبة بين ما هو قومي وما هو محلي ، على ان يراعى ذلك في الخارطة العامة للمواد والنصوص الثقافية داخل كل اذاعة عربية ، علما بان اذاعاتنا العربية جميعا بحاجة الى دراسة احصائية ميدانية عن طبيعة وحدود هذه النسبة حاليا وعن التصور السليم لها مستقبلا .

د) ضرورة العمل على تأكيد وابراز جوانب اللقاء والتفاعل والترابط في الثقافة العربية وجعل هذه الجوانب محورا للعديد من التناولات الاذاعية في اشكالها وصورها المختلفة تحقيقا لتجانس الوجدان الثقافي العربي العام ، وهنا لا بد من التأكيد مرة اخرى على ضرورة الالتزام بالمنهج القومي والرؤية القومية والتناول القومي لكافة جوانب الثقافة العربية قديمها وحديثها .

هـ ـ ضرورة الاهتمام بالعنصر الفعال في هذا المجال ـ ونعني به عنصر الانسان ـ اي الاذاعي العربي نفسه ـ فقبل القرارات والتوصيات والخطط والخرائط الاذاعية ، لا بد اولا ان يتجه الاهتمام الى صنع هذا الاذاعي العربي وتشكيله وصياغته بحيث يتحقق في وجدانه الثقافي هذا التناسق والتناغم والتكامل بين كل ما هو قومي ومحلي وعالمي في ثقافته وبحيث يصبح تأثيره وفاعليته من خلال المواد والنصوص الثقافية ، متجهين الى المسار الصحيح .

ذلك ان اخطاء التطبيق ـ التي سوف نكتشفها جميعا من خلال تأملنا لواقع الاذاعات العربية بالنسبة للجانب الثقافي منه ـ ناتجة بصورة رئيسية عن افتقاد النموذج البشري المتوازن الثقافة ، المكتمل الفهم والمتمثل لثقافته في ابعادها المختلفة (القومية والمحلية والعالمية) والمتصل بوجدان امته وروحها وحضارتها : تراثا وحاضرا واندفاعا الى المستقبل .

فاروق شوشه

دراسات ادبية

من منشورات دار الآداب

مذكرات طه حسين	د . طه حسين	٤٠٠
من ادبنا المعاصر	د. طه حسين	٢٥٠
سارتر والوجودية	د .م البيريس	٢٠٠
تجديد رسالة الغفران	خليل هنداوي	٢٥٠
سيمون دوبوفوار	فرانسيس جانسون	٦٥٠
بابا همنغواي	أ . ا . هوتشنز	٦٠٠
الادب المسؤول	رئيف خوري	٤٠٠
اصوات غاضبة في الادب والنقد	رجاء النقاش	٣٥٠
وتبقى الكلمة (دراسات نقدية)	صلاح عبدالصبور	٢٥٠
بيين آدم وحواء	د . زكي مبارك	٢٥٠
التكسب بالشعر	د . جلال الخياط	٢٥٠
محمود احمد السيد		
رائد القصة الحديثة في العراق	د. علي جواد الطاهر	٤٠٠
مشكلة الحب	د . زكريا ابراهيم	٥٠٠
شخصيات من ادب المقاومة	سامي خشبة	٢٥٠